الحضارة الإسلاميَّة

لقد اشتملت حضارة الإسلام على جميع مقوِّمات الحضارة الحقيقيَّة بجانبيها المعنوي والمادي ، كما جاءت لتسمو بكل كيان الإنسان : روحاً ، قلباً ، عقلاً ، نفساً ، وجسداً ، وتسعد كل البشر .

ولا عجب فهي وإن كانت ربَّانية المصدر والمنهج والغاية فإنها إنسانيّة الغاية والهدف أيضاً ؛ فإذا كانت الربانيَّة هي غاية المجتمع المسلم كما هي غاية الفرد المسلم فإن مضمون هذه الغاية هو سعادة الإنسان ، وفوزه بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين .

وإذا كانت الربانيَّة هي رسالة المسلم فإن أهداف هذه الربانيَّة هي تحقيق الخير للإنسان والسمو به ، والحيلولة بينه وبين الانحراف والسقوط . (١)

ونبدأ الحديث عن الحضارة الإسلاميَّة بذكر الجانب المعنوي : الديني الأخلاقي السلوكي ، ثمَّ نعقبه بالحديث عن قضيَّة مهمة لها علاقة بهذا الجانب وهي علاقة الإسلام بالعروبة ، ثمَّ نتحدَّث عن مدنيَّة الإسلام والمنجزات الحضاريَّة ودور مصر في هذا المجال فيها .

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " مكتبة وهبة ص ٥٣ .

مقومات الحضارة

يشترط علماء الحضارة عاملين رئيسيين لنشأة أي حضارة :

الأول : المقومات الطبيعية التي تتمثل في :

١- أحواض الأنهار الكبرى كالنيل في مصر ، ودجلة والفرات في العراق ، والسند في الهند ...

٢- المناخ وهو من أكثر العوامل الطبيعية تأثيراً في حياة الإنسان وفي تقدمه ، فلابد من توفر مناخاً معتدلاً ، وشمساً مشرقة ، وسماءً صافيةً ، وهواءً عليلاً ، ورياحاً لا بالعاصفة ولا بالساكنة ، واختلافاً في حرارة فصول السنة .

٣- الموقع الذي يمكنها من الاتصال بالعالم الخارجي والتفاعل معه والتَّأَثْر به والتأْثير فيه .

٤- الحدود الآمنة من العدوان الخارجي .

٥- الثروات المعدنية من حديد ونحاس وذهب ...، والصخور كالجرانيت والرخام ... والأحجار الكريمة كالماس والعقيق ...

الثاني : المقومات البشرية وفي السمات التي تميز الشعوب المتحضرة والتي تمكنهم من استخدام المقومات الطبيعية أحسن استخدام ومن أهم هذه السمات : الفطنة والذكاء ،والجد والاجتهاد ، والتضحية والفداء ، الإخلاص والإتقان ، والتعاون والإيثار ...

والحقيقة أن مقوّمات الحضارة الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب لا يصنعان حضارة حقيقيَّة قد يصنعان تقدُّماً علميّاً وتكنولوجيّاً ، يغزوان البلاد

ويذلاَّن العباد ولا يحققان إلا البؤس والشقاء ، ومصيرهما الهلاك والفناء؛ قد يُحَقِّق التقدُّم العلميُّ والتكنولوجيُّ مكاسب ماديَّة ومغانم اقتصاديَّة لكنه أبداً لن يحقِّق سعادة النفس ولا طمأنينة القلب ولا غذاء الروح ؛ فإن لم تُقَم المَدَنيَّة على دين صحيح وخلق قويم وسلوك مستقيم فإنها لن تصنع إنساناً سويّاً، ولن تقيم حضارة خالدة تنفع الإنسانيَّة . وهذا هو حال جميع مَدَنِيَّات الممالك والإمبراطوريات التي لم تُبْن على تعاليم السماء : الحق والعدل والحب وحسن الخلق ، كلها زالت غير مأسوف عليها بسبب ضلالها وظلمها .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[الروم : ٩]

وهي دعوة إلى النظر في أحوال الأمم القديمة والحديثة التي شيَّدت مَدَنِيَّتها على المقومات الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب دون تعاليم السماء ، نعم ملكوا القوة الباطشة ﴿كانوا أشدَّ منهم قوَّة﴾ وحرثوا الأرض وشقَّوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ وعمَّروا الأرض ؛ فأقاموا المدن الكبيرة وبنوا فيها القصور الفخمة وزيَّنوها بالحدائق الجميلة ونحتوا فيها التماثيل الضخمة وأحاطوها بالأسوار الجميلة ذات الأبراج العالية ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ لكنهم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه : ﴿وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ .

فلم تتفتح بصائرهم لهذه السيئات؛ ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق . فمضت فيهم سنَّة الله في المكذِّبين؛ ولم تنفعهم قوَّتهم؛ ولم يُغْن عنهم علمهم ولا حضارتهم؛ ولقوا جزاءهم العادل الذي يستحقُّونه : ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [1]

دعوة القرآن للنظر في أسباب هلاك الأمم السابقة

قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾

[الأنعام : ٦]

ألم ير أصحاب المدنيات المادية التي تنعمت بنعم الله وكفرت بالمُنْعِم سبحانه إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكَّنهم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوَّة والسلطان ما لم يُعْط مثله لهؤلاء وغيرهم ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق.. ثم ماذا؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذِّبين المُعْرِضين أصحاب القوَّة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً! لقد أُهْلِكُوا وغَبَروا فما أحسَّت

---

(1) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٥ ص ٤٨١ .

هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عمَّرها جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!

حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض

وهناك حقيقة ينساها البشر حين يمكِّن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تمَّ بمشيئة الله ، ليبلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبوديَّة له وحده ، والتلقي منه وحده – بما أنه هو صاحب المُلْك وهم مُسْتَخْلَفون فيه – أم يجعلون من أنفسهم طواغيت ، تدَّعي حقوق الألوهيَّة وخصائصها؛ ويتصرَّفون فيما اسْتُخْلِفُوا فيه تصرَّف المالك لا المُسْتَخْلَف .

إنها حقيقة ينساها البشر – إلا من عصم الله – وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف ؛ ويمضون على غير سنَّة الله ؛ ولا يتبيَّن لهم في أوَّل الطريق عواقب هذا الانحراف ، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون ، حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله ، ثمَّ تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال – بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام – ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام – ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذِّب بعضهم بعضاً ، ويدمِّر بعضهم بعضاً ، ويؤذي بعضهم بعضاً ، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلِّط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – يكسرون شوكتهم ، ويقتلعونهم مما مُكِّنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السُّنَّة .. السعيد من وعى أنها السُّنَّة ، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما اسْتُخْلِف فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة ، وظنَّ أنه أوتيها بعلمه ، أو أوتيها بحيلته ، أو أوتيها جزافاً بلا تدبير !

وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر ، مُمَكَّناً له في الأرض ، غير مأخوذ من الله ، ولكنَّ الناس إنَّما يستعجلون ، إنهم يرون أوَّل الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق ،ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء ! لا ترى إلا في مَصَارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث والقرآن الكريم يوجِّه إلى هذه المَصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون – في حياتهم الفرديَّة القصيرة – نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق !

الفرق بين التفسير المادي للتاريخ والتفسير الإسلامي

إن هذا النص في القرآن : ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم إنما يقرِّر حقيقة ، ويقرِّر سنَّة ، ويقرِّر طَرَفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقاديَّة التي يقوم عليها .

والتفسير الإسلاميُّ – بشموله وجدِّيته وصدقه وواقعيته – لا يغفل أثر العناصر الماديَّة – التي يجعلها التفسير الماديُّ هي كل شيء – ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة؛ ويبرز العناصر الفعَّالة الأخرى التي لا ينكرها إلاّ أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود ، يبرز قَدَر الله من وراء كل شيء؛ ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات؛ ويبرز السلوك الواقعيَّ والعنصر الأخلاقيَّ ، ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنّة الله في الحياة . (١)

فساد الأخلاق وانهيار الأمم والشعوب

يبيِّن القرآن الكريم أن لكلِّ أمَّة أجل ، كما يؤكد لنا التاريخ أن كل ما له بداية له نهاية ، وما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ، وكما أن الإنسان يمر بأطوار : ميلاد ، وطفولة ، وصبا ، وشباب ، ورجولة ، وشيخوخة ، وموت فكذلك الحضارات الإنسانية ، ونهضات الشعوب تمر بعدة أطور : ميلاد ، ونهضة ، وكمال ، واضمحلال ، وفناء .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٤]

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم : ٥٤]

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٢ ص ٤٧٠– ٤٧٣ بتصرف .

والعامل المشترك في اضمحلال حضارات ونهضات الأمم والشعوب هو فساد الأخلاق ، وانحلال القيم ، وتفشى الظلم والطغيان ، وبَطَر العيش، وكفر النِّعَم ، وكثرة الإسراف والترف ، وانتشار الزنا والخَنَى والفواحش والمنكرات .

ولِلَّهِ دَرُّ أحمد شوقي حين قال :

إنَّمَا الأمَمُ الأخْلاقُ ما بَقِيَتْ * فإنْ هُمُوا ذَهَبَتْ أخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

ونُجْمِل أهم مُهْلِكَات الأمم في الآتي :

١- الظلم :

إن الظلم من أعظم الأسباب التي يهلك الله عز وجل بها القرى، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾

[القصص : ٥٩]

وقال جل شأنه : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ [الأنبياء : ١١] .

وقال عز وجل : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥] .

فالظلم وعدم الحُكْم بالسويَّة سبب هلاك الأمم كما يقرر القرآن العظيم ، وبيَّن رسوله كريم يقول النبي ﷺ : " إِنَّمَا أهْلَك مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا

سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ ، وَايْمُ الله ، لَوْ أَنَّ فَاطمَةَ بِنْتَ مُحمّدٍ سرَقَتْ لَقَطَعتُ يَدَهَا " [متفقٌ عَلَيْهِ].

٢- بَطَر النِّعَم :

ومن الأسباب الحقيقية التي تؤدى إلى هلاك الأمم بطر النعم يقول تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص: ٥٨] .

لقد أهلك الله كثيراً من الأمم التي لم تقابل نعم الله عليها بالشكر وتحسن استخدامها في الخير بل تمتعوا بالنعم وكفروا بالمُنْعِم واستطالوا بهذه النعم على خلق الله ، واستعملوا نعم الله في الشر لا في الخير ، وفى الفسوق لا في الطاعة ، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ودمرهم وقراهم تدميراً .

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] .

ومن أنواع البَطَر التباهي بالقوة والجبروت واستخدام ذلك للتعدي على الإسلام وعلى الداعين إلى الله وللصد عن سبيل الله، وهو ما تفعله أمريكا وتشجع وتؤيد حلفاءها على فعله واقترافه، قال تعالى ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

٣- الإسراف والتَّرَف :

ومن أسباب هلاك الأمم الإسراف والتَّرَف .

والتَّرَف: هو الإغراق في النعم والاسترسال معها حتى تصبح كل هموم الإنسان – لزينة الثياب والتزين والتَّجَمُّل– والمترفون هم أعداء الرسل وهم سبب هلاك الأمم .

ومن نتائج التَّرَف: الغفلة، وعبادة الشهوة، والصراع على المكاسب، والعقوبات التدريجية وضياع الدنيا والآخرة.

يقول تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القول فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء : ١٦] .

والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح ، والمداومة على طاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا فيها ، وعاثوا في الأرض فساداً.

وخص الله تعالى المترفين بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع ، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة ، فإذا ما استجابوا للأمر استجاب غيرهم تبعا لهم في معظم الأحيان ، ولأنهم في أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ، وإلى الانغماس في المتع والشهوات .
وهذا التفسير للآية الكريمة ، سار عليه جمهور المفسرين .

٤– ظهور الفواحش :

من أسباب هلاك الأمم ودمارها: ظهور الفواحش فيها.

فالله تعالى حرَّم الفواحش كلها ظاهرها وباطنها ، سرها وعلانيتها ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

الفواحش : كبائر المعاصي والأعمال المفرطة في القبح عامة أما المفرد فاحشة فيقصد به الزنا بصفة خاصة ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾ [الإسراء:٣٢] .

ولقد توعَّد الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة بالعذاب في الدارين في الدنيا بالهلاك والدمار وفي الآخرة بالجحيم والنار ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩] .

ويقول ﷺ : " لا إِلهَ إلاّ الله ، وَيلٌ للْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ مِثْلَ هذِهِ " ، وحلّق بأُصبُعيهِ الإبهامِ والتي تليها، فقلتُ : يَا رَسُول الله ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

والخبث كما ذكر شُرَّاح الحديث هو الزنا، وأولاد الزنا، والفواحش، والفجور .

وفي أول خطبة لأبي بكر الصديق بعد توليه الخلافة حذَّر فيها الناس من إشاعة الفاحشة حتى لا يصيبهم البلاء والهلاك يقول الصديق " وَلا تَشِيعُ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطّ إلا عَمّهُمْ اللهُ بِالبَلاَءِ " [صححه ابن كثير] .

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك قال :" دخلت على عائشة رضي الله عنها أنا ورجل آخر، فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة، فقالت: إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمر وضربوا بالمآذن، غار الله جل وعلا في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا وإلا هدمها عليهم، قال: يا أم المؤمنين أعذابا لهم؟ قالت:

موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالاً وعذابًا وسخطًا على الكافرين" قال أنس: "ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحًا به مني بهذا الحديث"، ويقول ابن مسعود : " إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله بهلاكها."

ما يميز الحضارة الإسلامية عن غيرها

تتميز الحضارة الإسلامية عن غيرها أنها حضارة توحيد خالص وخُلِقٍ راسخ وعمل صالح ؛ فقد قامت الحضارة الإسلامية على تعاليم الإسلام الرامية إلى توحيد الله الواحد الأحد ووصفه بكل صفات الكمال وتنزيهه عن كل صفات النقص ذلك التوحيد الذي سوَّى بين كل البشر أمامه تعالى فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أبيض على أسود ، ولا غني على فقير ، ولا رجل على امرأة ، ولا حاكم على محكوم ، ولا صحيح على مريض إلا بالتقوى والعمل الصالح والخلق الكريم يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] .

ويقول النبي ﷺ في خطبة الوداع : " قَالَ رَسُولُ ﷺ : أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى ألا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ : لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ " [صحيح رواه أحمد] .

" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ " [صحيح مسلم] .

وبجانب عقيدة التوحيد التي تميز الحضارة الإسلامية تأتي الأخلاق التي تمثل الغاية من بعثة النبي ﷺ كما بينا في الفصول السابقة ، والأخلاق في الحضارة الإسلامية لا تقتصر على مجال واحد من مناحي الحياة بل تشمل جميع مناحي الحياة : السياسية ، والاجتماعية، والاقتصادية ، والحربية ، والعلمية ، الأدبية والثقافية ....

فقيم العدل والرحمة والتعاون والبر والمحبة أخلاق تحرص عليها الحضارة الإسلامية وتعمل على إشاعتها في المجتمعات الإسلامية في شتى مناحي الحياة ، وقيم : الظلم ، والقسوة ، والأثرة ، والعدوان ، والكره ... أخلاق محرمة بل مُجَرَّمة في الحضارة الإسلامية تعمل على القضاء عليها في شتى مناحي الحياة .

وفيما يل سنحاول بيان ذلك .

خصائص الحضارة الإسلامية

أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت بالخصائص التالية:

١ - الوحدانية المطلقة في العقيدة :

لقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فقد نادت بالإله الواحد الذي لا شريد له في حكمه وملكه، هو وحده الذي يُعيد، وهو وحده الذي يُقصد وهو الذي يعز ويذل، ويعطي ويمنح، وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين،

وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين.

كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهي خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحُكْم والفن والشعر والأدب، إن الإسلام الذي أعلن الحرب على الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من أقدم عصور التاريخ، كتماثيل العظماء والصالحين والأنبياء والفاتحين.

٢ - إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة :

وثاني خصائص حضارتنا أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه، في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

[الحجرات: ١٣]

إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عِقْدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدَّمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

٣ – مراعاة المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا :

وثالث خصائص حضارتنا أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها ، وهي لم تتخل عن هذه المبادئ قط ، ولم تجعل وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد، ففي الحكم وفي العلم وفي التشريع وفي الحرب وفي السلم وفي الاقتصاد وفي الأسرة، روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا، وبلغت في ذلك شأوًا ساميًّا بعيدًا لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارًا تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.

٤ – الإيمان بالعلم في أصدق أصوله :

الحضارة الإسلامية حضارة تؤمن بالعلم في أصدق أصوله ، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها ، فهي تخاطب العقل والقلب معًا ، وتثير العاطفة والفكر في وقت واحد .

وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنها استطاعت أن تنشئ نظامًا للدولة قائمًا على مبادئ الحق والعدالة، مرتكزًا إلى الدين والعقدية دون أن يقيم الدين عائقًا ما دون رقي الدولة واطراد الحضارة، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة .

إن الحضارة الإسلامية لا يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.

لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس " وايمُ اللهِ لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرقَتْ لقطَعتُ يدَها " [متفق عليه]
هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني .

٥ - التسامح الديني :

وآخر ما نذكره من خصائص حضارتنا هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين. إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله لا يبدو عجيبًا إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحَّها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه. إن رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون في التاريخ، فكيف إذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه ثم هي من أشد ما عرف التاريخ تسامحًا وعدالة ورحمة وإنسانية ! وحسبنا أن نعرف أن حضارتنا تنفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد ولكنها كانت للأديان جميعًا . (١)

---

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

الشواهد الواقعية على الحضارة الإسلامية

لقد تركت حضارتنا الإسلامية آثارًا خالدة في مختلف النواحي العلمية والخلقية وغيرها، وحققت دورًا عظيمًا في تأريخ تقدم الإنسانية، وخلّفت آثارًا بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت إليه المدنيات الحديثة، وليس هذا من المبالغة في شيء، ولا ضَرْبًا من التفاخر الكاذب والادعاء المذموم، بل سِجِلّ التأريخ بأحرف من ذهب ومداد من نور، وإليك بعض الشواهد الواقعية والنماذج الحية من تأريخ حضارتنا المشرق الوضاء، الذي ينضح عدلاً ورحمة وإنصافًا حتى مع المُخَالف .

ففي نزعة حضارتنا الإنسانية يُعلن الإسلام المبدأ الإنساني الخالد: ﴿يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَرَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ ٱللَّهِ أَتْقَكُمْ﴾[الحجرات: ١٣] لينقل الإنسانية من أجواء الحقد والكراهية، والتفرقة والعصبية، والتمييز العنصري إلى المساواة والتعاون الذي لا أثر فيه لاستعلاءٍ عرقي أو عنصري، ويتجلى ذلك في مبادئ حضارتنا وتشريعاتها وواقعها.

وقد زخرت كتب السير والتأريخ بوقائع كثيرة، هذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، يرى مرة في السوق شيخًا كبيرًا يسأل الصدقة، وكان يهوديًا من سكان المدينة، فيسأله (عن حاله، وإذا بعمر المسلم الإنساني الملهم يقول له: " ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيعناك شيخًا " وأخذ بيده إلى بيته، فقدم له من طعامه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال أن افرض له ولأمثاله ما يغنيه ويغني عياله.

هذا من شواهد الروعة الحضارية في تأريخ أمتنا المجيد.

وفـي مجـال النظـرة إلـى المُخَـالِف أعلنـت حـضارتنا الإسـلامية مبـدأ الإنـصاف، وحـسن التعامـل، والـدعوة إلـى الله بالـحسنى، مؤكـدة الإيمـان بجميـع الرسـل علـيهم الـصلاة والـسلام، ﴿لاَ نُفَـرِّقُ بَـيْنَ أَحَـدٍ مِّـنْهُمْ﴾ [البقـرة:١٣٦] مـع الحـرص علـى مبـدأ الحـوار والإقنـاع ﴿أَفَأَنـتَ تُكْـرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلاَ تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلاَّ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] مع التأكيد على الأخذ بقاعدة سد الذرائع في عدم سبّ آلهتهم، حتى يكون لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، والحرص على المصاحبة بالمعروف، وحسن الجوار، وكريم المعاملة، فقد كـان لرسـول الإسـلام ﷺ جيـران مـن أهـل الكتـاب، فكـان يـزورهم ويتعاهدهم ببره، ويقبل هداياهم، وما كتاب أمير المؤمنين عمر لأهل إيليا، وإعطاؤهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأماكن عباداتهم، وإجابتهم لاشـتراطهم أن لا يـساكنهم فيهـا يهـودي إلا أنمـوذج رائـعٌ يحمـل مغـزى عميقًا في آثار حضارتنا الإسلامية، مما دعا كثيرًا من منصفيهم إلى الاعتراف بأن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم، والفضل ما شهدت به الأعداء .

وثمـة جانـب مـشرق فـي حـضارتنا الإسـلامية ألا وهـو جانـب أخلاقنـا الحربية، فقد أشرقت شمس حضارتنا والعالم كلُّه تحكمه شريعة الغاب، حتـى تـردّى إلـى عـالم الوحـوش الكاسـرة، فوضـعت حـضارتنا الـضوابط الحربية محرِّمة الحرب للنهب والسلب، وإذلال كرامة الشعوب، وسحق المجتمعات، وجعلت لها غايات نبيلة، منها الدفاع عن عقيدة الأمة وأمـن المجتمـع وردّ عـدوان المعتـدين ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِـي سَـبِيلِ ٱللَّـهِ ٱلَّـذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] فالحرب

لا تنسينا مبادئنا، ولذلك جاءت الوصايا الكريمة حينما يشتد الوطيس: " لا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا شيخًا ولا وليدًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له " ، جاء هذا في وصية أبي بكر الصديق حينما أنفذ جيش أسامة رضي الله عنهما.

وأبلغ من هذا رسول الإسلام ، يخرج من معركة أحد جريحًا قد كُسرت رباعيته، وشُج وجهه، فيقول له بعض الصحابة رضي الله عنهم: لو دعوت عليهم يا رسول الله، فقال: " لمَّا كُسِرتْ رُباعيَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ وشُجَّ في جبهتِه فجعلت الدِّماءُ تسيلُ على وجهِه قيل : يا رسولَ اللهِ ، ادعُ اللهَ عليهم فقال ﷺ: " إنَّ اللهَ تعالَى لم يبعثْني طعَّانًا ولا لعَّانًا ، ولكن بعثني داعيةً ورحمةً ، اللَّهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون " [رواه البيهقي في شعب الإيمان] وهكذا قال يوم الفتح: " يا معشرَ قريشٍ ما ترَونَ أنِّي فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريمٍ ، فقال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ " ورأى في بعض غزواته امرأة مقتولة فغضب وقال: " ألم أنهكم عن قتل النساء؟! ما كانت هذه لتقاتل" .

ويمضي تأريخنا المجيد مسجلاً هذه الروائع، ففي حروب التتار وقع بأيديهم كثيرٌ من أسرى المسلمين وأهل الذمة، فتدخل ابن تيمية في فك الأسرى، فأجابه الوالي إلى فكّ أسرى المسلمين فقط، فأبى الشيخ ذلك، وقال: "لا بد من افتكاك الجميع، من أهل ديننا وأهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة"، وهكذا تعامل حضارتنا الأسرى من المسلمين وغيرهم .

ولما فتح صلاح الدين رحمه الله بيت المقدس كان فيها ما يزيد على مائة ألف من غير المسلمين فبذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج منها لقاء شيء يسير يدفعه المقتدرون منهم، ومن لا يقدر من الفقراء ففداؤه عليه رحمه الله . [١]

آثار الحضارة الإسلامية في تاريخ الإنسانية

إنَّ الحضَارَات إنَّما تخلُد بمقدار ما تُقدمه في تاريخ الإنسانيَّة من آثار خالدة في مُختلف النَّواحي الفِكرية، والخلقية، والمادية، والحَضَارة الإسلامية لعبت دورًا خطيرًا في تاريخ التقدُّم الإنْسَاني، وتركت في ميادين العقيدة والعلم، والحكم والفلسفة، والفن والأدَب وغيرها – آثارًا بعيدة المدى، قويةَ التأثير فيما وصلت إليه الحَضَارة الحديثة، فما الآثار؟ وما أهميتها؟

نستطيع أن نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في ميادين أربعة رئيسة:

أولا: في ميدان الفلسفة والعلوم.

أفاقت أوروبا في عصورها المظلمة على صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرِّسون هذه العلوم في مساجد إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها، وكان روَّاد الغَربيين الأُول بمدارسنا شديدي الإعجاب والشغف بكُلِّ ما يستمعون إليه من هذه العلوم، في جوٍّ من الحرِّية لا يعرفون له مثيلاً في بلادهم؛ ففي الوقت الذي كان فيه علماؤنا يتحدَّثون في حلقاتهم العلميَّة ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكرويَّتها، وحركات الأفلاك

(١) الشيخ عبد الرحمن السديس نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

والأجرام السماويَّة – كانت عقول الأوروبيين تمتلئ بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق كُلِّها؛ ومن ثَمَّ ابتدأت عند الغَربيين حركة التَّرجمة من العَربية إلى اللاتينية، وغدت كُتُب علمائنا تُدرَّس في الجامعات الغَربية؛ فقد تُرجم كتاب (القانون) في الطبِّ لابن سينا في القرن الثاني عشر، كما تُرجم كتاب (الحاوي) للرَّازي – وهو أوسع من القانون وأضخَم – في نهاية القرن الثالث عشر، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوروبية حتَّى القرن السادس عشر، أمَّا كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك، ولم يعرف الغَرب فلسفة اليونان إلاَّ عن طريق مُؤلفاتنا وترجماتنا، ومن هنا يعترف كثير من الغَربيِّين المُنصفين بأنَّنا كنا في القرون الوسطى أساتذة أوروبا مدةً لا تقل عن ستمائة سنة .

يقول العلاَّمة المستشرق "سيديو": "كان العَرب وحدَهم حاملين لواءَ الحَضَارة الوسطى، فدحروا بربرية أوروبا التي زلزلتها غاراتُ قبائل الشمال، وسار العَرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة، فلم يقفوا عند حدِّ ما اكتسبوه من كُنُوز المعرفة، بل وسعوه وفتحوا أبوابًا جديدة لدرس الطبيعة"، ويقول أيضًا: "والعَرب حين زاولوا علم الهيئة عُنُوا عناية خاصَّة بالعلوم الرياضية كلِّها؛ فكان لهم فيها القدح المعلَّى، فكانوا أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة " .

ويقول "هومبلد" في كتابه عن الكون: "والعَرب هم الذين أوجدوا الصَّيْدَلَةَ الكيماوية، ومن العَرب أتت الوصايا المُحكَمة الأولى التي انتحلتها مدرسة (ساليرم) فانتشرت في جنوب أوروبا بعد زمَن، وأدَّت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فنُّ الشفاء إلى دراسة علم النبات والكيمياء في وقت واحدٍ، ومن طريقين مُختَلِفين، وبالعَرب فُتِحَ عهدٌ جديد لذلك العلم " .

ويقول "سيديو" عن الرَّازي وابن سينا: " إنَّهما سيطرا بكُتُبهما على مدارس الغَرب زمنًا طويلاً، وعُرف ابن سينا في أوروبا طبيبًا؛ فكان له على مدارسها سلطان مطلق مدَّة ستة قرون تقريبًا، فتُرجِم كتابه (القانون) المشتمل على خمسة أجزاء، وطُبع عدَّة مرات؛ لِعَدِّه أساسًا للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا " .

ثانياً : في ميدان اللغة والأدب:

فقد تأثر الغَربيُّون – خاصَّة شعراء الإسبان – بالأدب العَربي تأثرًا كبيرًا؛ فقد دخل أدب الفُرُوسيَّة والحماسة، والمجاز والتَّخيُّلات الراقية البديعة إلى الآدَاب الغَربية، عن طريق الأدَب العَربي في الأندَلس على الخصوص؛ يقول الكاتب الإسباني المشهور "أبانيز": "إنَّ أوروبا لم تكن تعرف الفُرُوسيَّة، ولا تدين بآدابها المرعيَّة، ولا نخوتها الحماسيَّة قبل وفود العَرب إلى الأندلس، وانتشار فُرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب".

ومِن عباقرة الأدَب في أوروبا في القرن الرابع عشر وما بعده – مَن لا يُشَكُّ أبدًا في تأثير الآدَاب العَربية على قصصهم وآدابهم؛ ففي سنة ١٣٤٩هـ كتب "بوكاشيو" حكاياته المُسماة بـ "الصباحات العشرة"، وهي تَحذو حذو ألف ليلة وليلة، ومنها اقتبس شكسبير موضوع مسرحيته "العبرة بالخواتيم"، كما اقتبس لسنغ الألماني مسرحيته "ناتان الحكيم".

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه؛ فقد لَقِيَه في إيطاليا، ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (حكايات كانتربري).

أما (دانتـي)، فيؤكد كثيرٌ من النُّقاد أنَّـه كان في (القصَّة الإلهيَّـة) – التـي يـصف فيهـا رحلتَـه إلـى العـالم الآخـر – متـأثرًا برسـالة الغفـران للمعرِّي، ووصف الجنة لابن عربي.

وقد تأثرت القصَّة الأوروبيَّة في نشأتها بما كان عند العَرب من فنون القـصص فـي القُـرُون الوسـطى، وهـي المقامـات، وأخبـار الفُرُوسـيَّة، ومُغامرات الفرسان في سبيل المجد والعِشق، وكان لألف ليلة وليلة – بعد ترجمتها إلى اللُّغات الأوروبيَّة في القرن الثاني عشر – أثرٌ كبيرٌ جدًّا في هذا المجال؛ حتَّى إنها طُبعت منذ ذلك الحين حتَّى الآن أكثر من ثلاثمائـة طبعَة في جميع لُغات أوروبا؛ حتى لَيرى عددٌ من النُّقاد الأوروبيين أن رحلات (جليفر) التي ألَّفها (سويفت)، ورحلة (روبنسون كروزو) التي ألفها (ديفوه) – مدينة لألف ليلة وليلة، ولرسالة "حي بن يقظان" للفيلسوف العَربي ابن طفيل.

ولا حاجة بنا إلى أنْ نذكر ما دَخَل اللُّغات الأوروبية على اختلافها منْ كلمات عربيَّة في مُختلف نواحي الحَيَاة؛ حتَّى إنها لتكاد تكون كما هي في اللُّغة العَربية: كالقطن، والحرير الدِّمشقي، والمسك، والشراب، والجرة، والليمون، والصِّفر، وغيرها مِمَّا لا يُحصى.

ثالثًا: في ميدان التَّشريع:

فقد كان لاتِّصال الطُّلاب الغَربيِّين بالمدارس الإسلاميَّة في الأندلس وغيرها – أثرٌ كبيرٌ في نقل مجموعة من الأحكام الفقهيَّة والتشريعيَّة إلى لُغاتِهم، ولم تكن أوروبا في ذلك الحين على نظام مُتقن ولا قوانين عادلة؛ حتَّى إذا كان عهد نابليون في مصر ترجمَ أشهر كُتُب الفقه

المالكي إلى اللُّغة الفرنسيَّة، ومن أوائل هذه الكتب "كتاب خليل" الذي كان نواة القانون المدني الفَرَنسي، وقد جاء مُتشابهًا إلى حدٍّ كبير مع أحكام الفقه المالكي، يقول العلامة "سيديو": "والمذهب المالكي هو الذي يستوقفُ نظرنا على الخُصُوص؛ لما لنا من الصِّلات بعرب إفريقيَّة، وعهدت الحُكُومة الفرنسيَّة إلى الدكتور بيرون في أن يُترجم إلى الفرنسيَّة كتاب "المختصر في الفقه"، للخليل بن إسحاق بن يعقوب المتوفى سنة ١٤٢٢م".

رابعًا: في مفهوم الدَّولة وعلاقة الشَّعب بالحكومة:

فقد كان العالم القديم والوسيط يُنكر على الشَّعب حقَّه في الإشراف على أعمال حُكَّامه، كما يجعلون الصِّلة بينه وبين الحاكم صلةً بين العبد وسيِّده، فالحاكم هو السيد المطلق يتصرَّف بالشَّعب كما يشاءُ، وكانت المملكة تُعدُّ ملكًا خاصًّا للملك تُورثُ عنه كما تورث بقيَّة أمواله، ويستبيحون من أجل ذلك أن تقوم الحرب بين دولة وأخرى من أجل المُطالبة بحصة أميرة في العرش، أو للخلاف على ميراث الأصهار.

أمَّا العلاقة بين الأمم المُتحاربة، فهي استباحة الغالب لكُلِّ ما في يد المغلوب، وما في وطنه من مال وعِرض وحُرِّية وكرامَة، وظَلَّ الأمر كذلك حتَّى قامت الحَضَارة الإسلاميَّة تعلن فيما تعلن من مبادئها: أن الشَّعب هو صاحب الحقِّ في الإشراف على حُكَّامه، وأن هؤلاء ليسوا إلاَّ أُجَرَاء يسهرون على مصالح الشَّعب وكرامَته بأمانة ونزاهة، وفي هذا يقع لأول مرَّة في التَّاريخ أن يحاسب فردٌ من أفراد الشَّعب حاكمَه عما يلبس، من أين جاء به؟ فلا يحكم عليه بالإعدام، ولا يُقاد إلى السجن،

ولا يُنفَى من الأرض، ولكن يقدم له الحاكم حسابه حتَّى يقتنع ويقتنع الناس، ولأول مرَّة في التَّاريخ يقول أحد أفراد الرَّعيَّة لحاكمِه الأكبر: السَّلام عليك، أيُّها الأجير، فيعترف الحاكمُ بأنَّه أجير الشَّعب، عليه ما على الأجير من حقِّ الخدمة بإخلاص، والنصح بأمانة، أعلنت الحَضَارة الإسلاميَّة هذا فيما أعلنته وطبَّقته بعد ذلك، فما هي إلا نسمة الحرية والوعي تهبُّ في الشعوب المجاورة للمُجتمع الإسلامي، فتتململ، ثم تتحرَّك، ثم تثور، ثم تتحرَّر.

وكان مما أعلَنَتْه حَضَارتنا في حُرُوبها: احترام العهود، وصيانة العقائد، وترك المعابد لأهلها، وضمان حُرِّيات النَّاس وكرامتهم، فأثارت في الشُّعوب المغلوبة لحكمها روح العِزَّة والكرامة، ونبهت فيهم معاني الإنْسَانية الكريمة العزيزة.

وكان في التَّاريخ لأول مرَّة أن يشكوَ والدُ مغلوبٍ الحاكمَ الغالبَ إلى رئيسِ الدَّولة الأعلى، من أنَّ ولدَ الحاكمِ قد ضرب ولده الصَّغير خفقتَين بالسَّوط على رأسه من غير حق، ويغضب رئيس الدَّولة الأعلى، ويحاسب ولد الحاكم ويقتَص منه، ويقرع الحاكم ويؤنبه، ويقول له: "متى استعبدتم النَّاسَ وقد ولدتهم أمَّهاتُهم أحرارًا ؟!".

إنَّ هذه روح جديدة تبعثُها حَضَارتُنا في الأفراد والشعوب.

وبعد، فهذه هي بعض الآثار الخالدة لحَضَارتنا في أربعة ميادين رئيسة، هي أبرز مظاهر الحَيَاة في الأُمَم والحضَارَات؛ ومن أجْل ذلك كان لنا - نحن أبناء هذه الحَضَارة - دَين على الشُّعوب التي حرَّرتها

حَضَارتنا، يجبُ أن نستردَّه لا بالتَّفاخر الكاذب، ولا بالأماني والأباطيل، بل بمعرفتنا لقَدْر أنفسنا، وقيمة حَضَارتنا، وسُمُو تُراثنا، واستحقاقنا لأَنْ نكون الأمة الوسط التي تشهد على النَّاس، وتقودهم إلى الخير والحق والكرامة . [١]

***

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .